الالم

(تابع ما قبلهُ)

ايها السادة — لقد مثل المصورون الالم بشكل فتاة منطرحة على كرسي حزينة باكية وعلى رأسها قناع اسود يتدلى الى ركبتيها وفي يدها مشعل قد خبا نورهُ ولا يزال دخانهُ يتصاعد وامامها ناووس من نواويس القبور. هذا قيل من كثير عن الالم. مثل من الف مما يمكن ان تجود بهِ قريحة المصور والنقاش لان الالم صور مختلفة لحقيقة واحدة. من ذا يحاول تشريح الالم ولا يضيع في تياره. الم الجسم المريض والفكر الحزين. جراح الروح وجراح البدن. عذاب القلب والضمير. بريتوس ينكر الفضيلة. وبطرس ينكر المسيح. بونابرت يبكي تاجاً والخنساء تبكي صخراً وابن زريق يردد في غربتهِ

أُعطيتُ ملكاً فلم احسن سياستهُ وكل من لا يسوس الملك يخلعهُ

الابطال والمصلحون. الشعراء والمحبون. الاباء والامهات والبنون. كل لهُ دم يسري في العروق ودمع يسيل من العيون. تعددت الآلام والقلب واحد

واذا قلت القلب ورددت هذه الكلمة مراراً في عرض حديثي فعلى سبيل المجاز لا الحقيقة لان مقر الاحساس ليس في القلب وان قال بذلك الشعراء ومؤلفو الروايات وشهد بهِ فيلسوف المعرة القائل

اقلب كالماء والاهواء طافية عليهِ مثل حباب الماء في الماء

هذا القلب الذي قدسهُ الاقدمون ونسبوا اليهِ كل عجيبة لا يرى الطبيب فيهِ الاَّ آلة من آلات الجسم تعمل في سبيل المصلحة العامة. حركة وصوت واما القوة المدبرة فبعيدة عنهُ مقرها في مؤخر الجمجمة في النخاع المستطيل. ويمكننا تشبيه النخاع والقلب بسائق المركبة وجواده فالسائق يربط الجواد بالعنان والنخاع يربط القلب بالعصب وعلى حسب الاثر الذي يصيبهُ النخاع يرخي العنان للقلب فتسرع دقاتهُ او يشدهُ فتقف

وقد كنت اود ان اذكر لكم بعض الآلام التي تثيرها الامراض في الجسم فيضطرب لها هذا القلب المسكين ايما اضطراب ولكني اعلم انكم اتيتم لتسمعوا الخطيب لا الطبيب وقد وعدتكم في صدر خطابي ان لا اثير اشجانكم فاطوي اذاً

هذه الصفحة الدامية واجتاز مملكة الآلام الكبرى واقاسي مخمض عيني سادتي اذني لكي لا يستوقفني في الطريق مشهد او صوت تهتز لهُ جوانحي اسفاً . لا تحسبوني مبالغاً فيما اقول فان من الامراض كالترس والكزاز والتهاب النخاع والمخمص الكلوي ما يقل في جنبهِ آلام الجلد والتعذيب . سلوا المصاب بالترس عن دائهِ يخبركم ان الزيت الغالي اذا صب على رجلهِ لا يكون اشد وقعاً منهُ . الم يزوره تحت جنح الظلام ضيفاً بلا احتشام فيذيقهُ عذاب الضرام ولا يرحل عنهُ حتى صياح الديك . الم لا يقوى شيء على اخمادهِ بل كل حركة تزيدهُ تأججاً حركة في السرير او حول السرير . مشي في الغرفة او على الطريق . فاذا جاء النهار لم يبقَ منهُ سوى التذكار واذا جاء المساء عاد الداء الى العداء

وسلوا المصاب بالكزاز او بالاحرى لا تسألوه فهو لا يقوى على الجواب . مشهد يفتت الاكباد : تشنج عام يربط الاعضاء ويقوس الصدر ويطبق الحنك ويشد الاسنان بعضها الى بعض والمريض حافظ لوعيهِ مالك لشعورهِ يشهد بنفسهِ احتضار نفسهِ . يتقلب بين مخالب الداء ويتعذب عذاب الشهداء وقد زال من عينيهِ نور الحياة ونور الرجاء وهو لا يستطيع ان يرفع صوتهُ ليلقي الى من حولهُ تحية او وصية او شكوى من هذه البلية

عفواً يا سادتي اراني دخلت فيما حاولت الخروج منهُ ولكنها رؤيا قصيرة تعذروني عنها لان الطبيب الذي قضى شبابهُ في مكافحة الآلام يغالبها وتغالبهُ فيفوز عليها مرة وتفوز عليهِ مراراً لا يستطيع الخروج من هذه اللجج دون ان يختضب ثيابهُ ويقطر من دمائها

ومن الغريب ايها السادة ان الالم على قدمهِ لم يهتدِ الانسان الى الوسائل الواقية منهُ او الشافية لهُ بسهولة . وما انفك عنا ببعيد ايام كانوا يضعون المريض تحت شجرة البنج يستنشق هواءها المخدر ليستطيع احتمال العملية الجراحية

ولا ينحصر فوز العلم على الالم باكتشاف العقاقير والادوية بل هناك تربية الارادة وهذا هو الفرق بين المتوحش والمتمدن فان الاول كما قال فرخو رجل تخاعي يسير في الحياة بحكم مشاعرهِ واما الثاني فيستطيع بالتربية ان يوقف الاعصاب المتمكسة فلا يصيح مثلاً من الالم ولا تتغير سحنتهُ مراراً في النهار بين صفرة واحمرار . وقد ذكر بعض المؤرخين ان الذين تبتوا على المشاق من رجال نبوليون

في حروب روميا لم يكونوا اقوياء البدن بل اقوياء الارادة ولله در القائل

ترى الرجل النحيف فتزدريهِ وفي اثوابهِ اسدٌ مزيرُ
ويعجبك الطرير فتبتليهِ فيخلف ظنك الرجل الطريرُ
لقد عظم البعير بغير لبٍّ فلم يستغن بالعظم البعيرُ

وقد تضعف حاسة الالم في بعض الامراض العصبية كالفالج مثلاً . يروى عن الجاحظ انهُ جمع في جسمهِ بين الحالين شدة الالم وعدمهِ فقد اصابهُ الفالج بجانبهِ الايسر فكان لو قُرِض بالمقاريض لما احسَّ وكان منقرساً من جانبهِ الايمن فلو مرَّت بهِ ذبابة لآلمتهُ

ومن الناس من لايشعر بالالم على الاطلاق وما ذلك عن قوة ارادة بل هو نوع من الاستهواء هكذا يسير الجندي المثخن بالجراح الى الموت غير مبالٍ باوجاعهِ غلاً برائحة البارود ولعلعة المدافع وحب الوطن. وهكذا ترى الفتاة الطريلة الصفراء تركض في المراقص والاعياد غير شاعرة بما بها من ضعف والمحاط بحمرة يجاذب اللذة ويخار الشمبانيا واريج الازهار وبهرجة الحلي والانوار. وهكذا يحتمل الشهداء آلام النار والصلب في سبيل مبدإٍ او فكر او امل الجزاء في العالم الثاني

وقد يظن الانسان لاول وهلة ان الليل عون على الالم والحقيقة خلاف ذلك بل من الامراض كما مرَّ معنا ما ينتظر هبوط الظلام ليؤجج ناره في الجسم وعليهِ قال المتنبي في الحمى

وزائرتي كأن بها حياء فليس تعود الاَّ في الظلامِ

واذا كان في ضحة النهار وضياء الشمس وابتسام الوجود ما ينسي الفكر آلامهُ فان في الظلام دعوة الى التذكار والشجون. وعثل هذه الدعوة قمت ليلة ارق الماضي سكون الليل فكانت نجواي هذه الابيات :

يا خمرةَ الليل كم اضرمت بي نارا وهجت تحت رماد القلب اسرارا
وكم وضعت على عيني ستار دُجى وما رفعت لعين الفكر استارا
هل انت يا ظلمات الكون شاعرة بحرِّ انفاس حب فيكِ قد حارا
ان كنتِ للراحة الكبرى خلقتِ فكم ارحت عيناً وكم اتعبت افكارا
الموت اقرب شيءٍ شبهوك بهِ لو ان للموت اقبالاً وادبارا
وذا جبينكِ لاخطٌّ يجعدهُ وكم طويت بهِ ياساً واعمارا

تهمات الورى ما تضمين بها قولي وهل تحفظين السر ادهارا
وما تقول لك الاحلام طائرةً من الجفون مع النوم الذي طارا
واين تخفين نور السابحات على متن الفضاء اذا ما نورها غارا
تنور في محرك الداجي وتطلع ام تطوي الى الشاطىء المجهول المحارا

***

يا ليل يا ليل كم ناداك من طرب صوت المغني فما حركت اوتارا
ليل المحبين هل هذي عيونهم ماتوا فاطلعتها في الليل اقمارا
وهل تظل على الآلام بعدهم ام ترسل النور للاحباب تذكارا

***

تزحزحي يا غيوم الافق وانقشعي وارسلي يا عيون الليل انوارا
هل فاحليني على اشباه اجنحة حتى ارى غير دار البؤس لي دارا
اودّع القطعة المحم التي أسرت روحي وأصبح في الآفاق سيارا
فلا ارى الدم فوق الارض منسفكاً والبغض يضرم فيها النار والعارا

ايها السادة

ما تكون غاية الطبيعة من الالم لتلقيه في حضن الاجتماع وتهزه كالطفل في سرير الوجود ؟ هذا الالم الذي حمل شوبنهور على اعتبار الحب كمحرم عظيم لانهُ يخلّد الحياة يخلد الالم . يقول علماء الفسيولوجيا اذا كان الالم داء في نظر الطب فهو اساس الارتقاء بما يترك في النفس من الانذار فان الواحد منا اذا اصابهُ وجع حفظ ذلك في ذاكرته فامكنهُ تجافي مواضع الخطر في المستقبل فلا يدنو مثلاً من النار لانهُ عرف لذعها ولا يمس حد السكين لانهُ ذاق طعمهُ ولا يتجرع السم لانهُ اتاهُ نبأ عنهُ فهو بذلك يقوم مقام الغريزة عند الحيوان الاعجم . الا ترى كيف يبتعد الهر عن النار اذا ادنيتهُ منها في حين ان الطفل يمد اليها يدهُ فتحترق . هذا فيما يتعلق بالالم الحسي واما المعنوي فغايتهُ اوضح مما ذكرت لما يترتب عليهِ من تهذيب النفس وتلطيف الاخلاق . الالم كما قال شاعر الالم « استاذ البشر وكما تحتاج النبتة الى الندى لتنمو يحتاج الانسان الى الدموع ليحيا ويحس » بل الالم كالموج الذي يطم الشاطىء ويهذب حجارهُ مع الزمن . والقلب الذي لا يتألم لا تهذب حواشيهِ ولا تصقل لآلئهُ . الالم هو البوتقة التي يخرج منها الذهب الوهاج

والنار التي يسبك فيها السيف البتار . هو الذي يخلع على الطبيعة ثوب البهجة ويرفع قيمة الحياة في عيوننا ويفهمنا معنى اللذة الحقيقي ولولاه لمررنا على الوجود كالغرباء لا عجب ولا طرب ولا ادب

ما هي الارض ؟ ذرة تراب في قعر اللانهاية ولكنها عظيمة بالالم الذي عليها . عظيمة ما دامت تقل على سطحها انساناً يحب ويتألم لان الحب والالم اصل كل جمال وكل ما على الارض من مجد ونبالة وهمة واقدام وشعر وذكاء اصله دمعة في العين وخفقان في الصدر . اجل يا قوم احب الارض لانها موطن الالم . ولا قيمة في نظري لتلك العوالم السابحة في الفضاء الازلي . ماذا يهمني حجمها الكبير ونورها المستطير اذا خلت من الالم ولم يكن عليها أثر للفضيلة والنبوغ ؟ لتركض ما شاءت في افلاكها الواسعة بين جذب ودفع فسرعتها الهائلة وضجيجها المالىء اذان الفضاء المجهول لا يوازيان عندي دقات القلب الكسير

ما اعظم الخدم التي يقوم بها الالم نحو المجتمع . ارجعوا بعين الفكر الى ماضيه وقابلوا بين حاله الاول وحاله اليوم . كان الانسان عبداً فصار حراً وذليلاً فاصبح مكرماً . كان المريض مضطهداً والبائس مرذولا فالمجنون يطارد في الغابات كالوحوش والابرص يعزل كالقاتل ويحرم من كل حق حتى من الحب واذا اراد الخروج من عزلته عليه ان يلبس صدرة حمراء ويحمل جرسهُ بيدهِ يدق به على قارعة الطريق انذاراً للناس فكأنهُ يمشي بين القبور . اما اليوم فقد اقيمت المستشفيات والملاجىء الخيرية للمجنون والمريض فخف بلاء هذا وزال شقاء ذاك . ان باستور تألم من انتشار الكلب فهب الى مكافحته ورأى بعينيهِ مصاب الوالدين فجرب فيهم الدواء وكان الشفاء . وبهريج ورو راعهما حداد الامهات والسرو الناي فوق الاسرة والمهود فاكتشفا مصل الخناق . لا يفل الحديد الا الحديد ولا يزيل الالم الا الالم . وهذه الحرب الطاحنة التي اثارتها الاطماع من كان يفكر بتخفيف ويلاتها لولا الالم ؟ تعالوا معي الى احدى ساحات القتال وانظروا هذا الشبح المتعثر بظلام الليل يمشي بحذر خوفاً من الرقباء والانوار الكشافة . رجل ورعا كان امرأة او فتاة يطوف في الخنادق المهجورة وينشش بين الحفر والادغال ليقع على جريح فيهِ بقية رمق فينقذهُ . ها هو يحمل بين يديهِ صرة من لحم وعظم لم يبق فيها غير خفقان الروح وبالامس كانت تلتهب بالفكر والامل . يحملها بلطف الى هيكل

الامان فتتقدم لامسات البياض كاصبات ذلك الهيكل وتركع الرحمة امام الالم . وما هو الاَّ القليل حتى يفتح الجريح عينيهِ وتلوح الابتسامة على شفتيهِ فينير بها قلوب تلك النسوة لانهُ ليس فيهنَّ من لم تصبها الرصاصة في قلبها كذلك الجريح . ليس فيهن من لم تكن انَّا تبكي فقدة حشاها او ربما تندب اخاها او فتاة تحن الى فتاها

وما يكون مستقبل المشوهين بعاهات الحرب كالعميان مثلاً لولا اهتمام الباقين بهم واقامة الملاجىء وبيوت التعليم يكفون البطل ذل السؤال ويمنعون من قدم حياتهُ على مذبح الوطنية ان يقدمها ثانية على مذبح اليأس العقيم

فالرحمة ديانة الانسان المتمدن لانها بنت الالم ولو محي الالم من الوجود لانهار كل هذا البناء الشامخ المؤسس على الاحسان ولم يبقَ في العالم مدرسة ولا مستشفى ولا مجتمع ولا محفل يذكر فيهِ لفظ الخير عا تسع هذه الكلمة من المعاني ولعاد الانسان القهقرى الوفاً من السنين وما فيهِ الاَّ فم جائع وفكر مظلم . وما تعملون انتم هنا لولا الالم ؟ من كان يتكبر منكم باطعام الجائع وتربية المسكين ومساعدة المريض لولم تهتز اوتار فؤادهِ تحت ضربات الالم ؟ اقول هذا لاني على يقين انكم تأتمّ او تتألمون . لا تغرّني الوجوه الضاحكة والعيون المشرقة ولا تخدعني الاطلس الفاخرة تتبادى فيها المعاطف الهيفاء ولا الحلى الباهرة تزين المعاصم البيضاء ولان ما على الرؤوس من زينة وفي الوجوه من رواء تلكم هي صور الحياة الظاهرة وانا المح من ورائها الالم الخفي . فاذا كان في الالم هذه الغاية السامية التي ترفع الانسان الى ما فوق مراتب الانسانية وتجعلهُ يشرف على جمال الطبيعة وحسنات الحياة فحسب المتألمين عزاء وحسبكن يا سيداتي بلسماً ضامداً لجراحكن . ولا اظن رجلاً يجهل الالم يستطيع ان يكون رقيقاً في اخلاقهِ كريماً في عواطفهِ وديعاً في معاملتهِ ادبهُ طبع لا تطبع وعطاؤهُ سخاء لا تصنع . واذ كنتن مثال اللطف والدعة والظرف لا قسوة في طباعكن ولا كبرياء ولا شر في نفوسكن ولا رياء فلانكن صديقات الالم وهو الشاهد عليكن يوم تعطينا الثمن ما يعطى: الحياة

سبحانك ايها الالم فانت اله الابطال والله المحسنين . سنيان يقول من لم يعرفك فماذا يعرف ؟ وروسو يقول من لم يذق ضعفك لم يذق لذة الرحمة وحنان الانسانية . وموسه يقول : لا شيء يجعلنا عظام النفس كالالم العظيم

تحكم ايها الالم في نفسي فقد وضعتها بين يديك وجعلتها وقفاً عليك . تحكم ما زال في العين بقية من الدموع وفي القلب بقية من الانين . اضرب بقضيبك السحري على صخرة القلب البشري وفجّر منهُ مع الدمع ينابيع الرحمة وينابيع الحكمة . اضرب على القلوب ما استطعت واملأ بضحاياك الارض والسماء فما الحياة الاَّ ما صنعت وما الخلود الاَّ ما تشاء الدكتور نقولا فياض

نقود الورق (بنك نوت)

(٢)

٣ نظرة عامة في منشإ البنك نوت وشروط التعامل بها

ان البنك نوت لمن اوسائط السهلة التناول الخفيفة الحمل للتعامل والبيع والشراء. والتعامل بها مبني على الثقة العامة والاعتماد الاجتماعي اللذين لولاهما ما توسع القوم في الاعمال التجارية والمشاريع الاقتصادية بل لبقيت التجارة في نطاق ضيق لا يرجى توسيعهُ . ولا قيمة حقيقية للبنك نوت في حد ذاتها بل ان قيمتها اسمية مؤسسة على الثقة التجارية المتبادلة بين افراد المجتمع حسبما تقدم وتعد في هذا الباب مثل سائر الاوراق التجارية والسفاتج التي تنشأ من عقد القروض وبيع البضائع وتحويل الدراهم من مدينة الى اخرى ومن مملكة الى ثانية الاَّ ان البنك نوت اسهل مأخذاً في التعامل من الاوراق التجارية لما لنقل هذه الاوراق من يد الى يد من القوانين والشرائع والاصطلاحات مما يجهلهُ السواد من الناس لاسيما اذا كانت السفاتج الى آجال بعيدة

وقد اعتقد القوم في سالف الايام ان وجود طابع الحكومة على القراطيس المالية كاف لعد تلك الاوراق نقوداً مثل سكة الذهب والفضة والنحاس الاَّ ان غير الايام وطوارق الحدثان اظهرت خطاء هذا الظنّ لما جرتهُ على البيوت المالية من الخراب والدمار . ومن امثال ذلك ما جرى في فرنسا حينما اصدرت هذه الدولة نقود الورق او القوائم المالية "Assignats" وما حدث من القلاقل في الولايات المتحدة حتى اعتقدت ايران حرب عوان تدعى حرب الانشقاق . وعليهِ فلا يحق للبيوت المالية والحكومات مهما كانت منزلتها من النظام وحسن الادارة